موقف المولى محمد بن عبد الله
من المختصرات الفقهية

الباحثة مريمة ريبوح
إشراف الأستاذة: لالة غيثة غزالي
المغرب

ملخص المقال باللغة الإنجليزية:

Sultan Muhammad bin Abdullah is considered one of the sultans who contributed greatly to the revival of the scientific, reform and comprehensive intellectual renaissance in Morocco during the period in which he lived, In addition to his political acumen and insightful leadership in the affairs of the parish, The Sultan also emerged in the scientific field with his giving that enriched the intellectual arena in terms of composition reform and renewal, He wrote books intended to stimulate and sharpen enthusiasm in order to break free from the clutches of stagnation and imitation, He sought to point out the obstacles to academic achievement and building knowledge, He was called to take science from its original sources and to avoid the media that interfere with achievement.

In this article, I tried to shed light on an aspect of his scientific life, and his position on jurisprudential abbreviations, according to the following schematic:

chapter I

_ Translation of Mawla Muhammad bin Abdullah and his request for knowledge.
_ His scientific councils and some of his sitting scholars and jurists.
_ His scientific achievements and his reform of education in the villagers
_ His books.
_ His death.
Chapter II:
_ Definition of jurisprudential abbreviations and some of their synonyms.
_ Reasons for the emergence of jurisprudence abbreviations.
_ Mawla Muhammad bin Abd's position on jurisprudential abbreviations.
_ The imams whom he followed in building his position.
Conclusion.

مقدمة

يعتبر السلطان محمد بن عبد الله من السلاطين الذي ساهموا بشكل كبير في بعث النهضة العلمية والإصلاحية والفكرية الشاملة في المغرب خلال الفترة التي عاش فيها، فإلى جانب حنكته السياسية وقيادته المتبصرة لشؤون الرعية، برز السلطان كذلك في المجال العلمي بعطائه الذي أثرى به الساحة الفكرية تأليفا وإصلاحا وتجديدا، فقد ألف مؤلفات قصد من ورائها تحفيز الهمم وشحذها من أجل التحرر من براثن الجمود والتقليد، وسعى إلى التنبيه إلى معيقات التحصيل العلمي وبناء الملكات المعرفية، فدعا إلى أخذ العلوم من ينابيعها الأصلية وتجنب الوسائط المخلة بالتحصيل.

وسأحاول في هذا المقال تسليط الضوء على جانب من حياته العلمية، وموقفه من المختصرات الفقهية وذلك وفق الخطاطة التالية:

الفصل الأول: المولى محمد بن ع

ـــ ترجمة المولى محمد بن عبد الله وطلبه للعلم.

ـــ مجالسه العلمية وبعض جلسائه العلماء والفقهاء.

ـــ منجزاته العلمية وإصلاحه للتعليم بالقرويين

ـــ مؤلفـــــــــاته.

ـــ وفـــــــــاته.

الفصل الثاني:

ـــ تعريف المختصرات الفقهية وبعض مرادفاتها.

ـــ أسباب ظهور المختصرات الفقهية.

ـــ موقف المولى محمد بن عبد من المختصرات الفقهية.

ـــ الأئمة الذين اتبعهم في بناء موقفه.

خاتمة.

لائحة المصادر والمراجع

الفصل الأول: السلطان محمد بن عبد الله وجانب من حياته العلمية.

أ ــ ترجمة السلطان محمد بن عبد الله وطلبه للعلم:

هو السلطان المولى محمد بن عبد الله بن إسماعيل ولد بمكناس سنة 1134 هــ الموافق ل 1721م[1]، ترعرع في أحضان والده المولى عبد الله وجدته العالمة المقتدرة خناتة بنت بكار.

بويع المولى محمد بفاس سنة 1171هــ الموافق 1757م[2].

كان السلطان كثيرا ما يتأسف ويقول: "والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة" ويتحسر على ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب.

كان رحمه الله في بداية طلبه للعلم يعتكف على سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها حتى بلغ منها المنتهى، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني، من كلام العرب وشعراء الجاهلية والإسلام، ولما تولى أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والأدب وأقبل على سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب لذلك أوقاتا مضبوطة لا تنخرم حذا بها حذو المنصور السعدي[3].

ب ــ مجالسه العلمية وبعض جلسائه العلماء والفقهاء:

كان محبا للعلماء وأهل الخير مقربا لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله محمد ابن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي، والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمان الملقب بأبي خريص، هؤلاء هم أغلب أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها وفق ما يشير به عليهم، وكانت له عناية كبيرة بذلك، فقد جلب من بلاد المشر ق كتبا نفيسة في الحديث لم تكن في المغرب، مثل مسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة وغيرهما.

وكان كثيرا ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف، وتفهمه.

كما كان رحمه الله إذا خرج لزيارة أو صيد أو نزهة أيام الربيع وأقام الأسبوع ونحوه فإذا حانت الجمعة ودخل تحرى النزول بمنازل المنصور التي كان ينزل بها وقت خروجه لزيارة أغمات ونحوها ورجوعه، ويقول: "هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا في مثل هذه الأمور"

ج ــ منجزاته العلمية وإصلاحه للتعليم بالقرويين.

ومما يعد في طالعة النهضة العلمية في دولة السلطان محمد بن عبد الله حضه العلماء على نشر العلم وبثه بالتدريس والتأليف وبث روح المنافسة بينهم في ذلك فأمر بشرح مشارق الأنوار للإمام الصغاني، فشرح منها الشيخ التاودي ابن سودة الثلث الاول، وشرح الثلث الاخير الحافظ أبو العلاء إدريس العراقي وأدركته المنية قبل أن يكمه فأمر السلطان ابنه أبا محمد عبد الله بإكماله فامتثل.

ويعد السلطان محمد بن عبد الله أول من وضع حجر الأساس في إصلاح التعليم بالقرويين، واختيار الدروس النافعة لطلبة العلم في شتى الفنون، وبين ما يحصل به العلم وتتكون به الملكة الفقهية من غيره، وأصدر في ذلك منشورا أمر باتباع ما فيه. افتتح بقوله: "ليعلم الواقف على هذه الفصول المذكورة في هذا الكتاب أننا نأمر باتباعها والاقتصار عليها ولا يتعداها إلى ما سواها" [4]

ورتب في هذا المنشور فصولا؛ فجعل فصلا لأحكام القضاء، وفصلا يتعلق بالمدرسين في المساجد، وفصلا في أئمة المساجد. ونظم الدروس التي ينبغي التقيد بها بأمر بالاقتصار في القرآن الكريم وعلومه على كتاب الله بتفسيره، وفي الحديث بكتب المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلم وغيرها من الكتب الصحاح، وفي الفقه على المدونة والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن شاس والنوادر والرسالة لابن أبي زيد القيرواني وغير ذلك من كتب الأقدمين. أما من أراد تدريس كتاب مختصر خليل فاشترط لذلك شرطا ان يكون بشرح بهرام الكبير والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير لا غير وما عدى هذه الشروح ينبذ ولا يدرس. أما السيرة فأمر بكتاب الاكتفاء للكلاعي، وسيرة ابن سيد الناس اليعمري، ثم النحو أمر بكتاب التسهيل والألفية وغيرهما من الكتب المفيدة، وفي البيان؛الإيضاح والمطول وكتب الصرف وديوان الشعراء الستة ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وامثالها.مما يعين على فهم كلام العرب ولسانها لأنها وسيلة لفهم كتاب الله وحديث رسوله، ثم العقيدة وأمر بالاقتصار فيها على عقيدة ابن أبي زيد القيرواني التي افتتح بها رسالته، وفي آخر المنشور وجه تنبيها إلى الفقهاء الذين يقرؤون الفلك والحساب أن يأخذوا حظهم من الأحباس.

ولما انتهى رحمه الله من هذا المنشور وجه نسخة منه إلى علماء مصر طلبا للرأي والمشورة[5].

د ـــ مؤلفـــــــــــــــــــــــــــــــاته:

ألف رحمه الله تآليف في الحديث بإعانة بعض الفقهاء، منها كتاب مسانيد الأئمة الأربعة، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم، أو اثنان، فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه، وهذا المنوال لم يسبق إليه.

ـــ مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان: وهو بمثابة مقرر دراسي وضعه السلطان لمدرسي الكتاتيب القرآنية، مخطوط.

ـــ الفتوحات الإلهية فيما اجتمع من الأحاديث النبوية الشافية للقلوب الصدية: وهو كتاب في العبادات ويطلق عليه كذلك الفتوحات الصغرى، مخطوط.

ـــ الفتوحات الإلاهية الكبرى: كتاب في الحديث، مطبوع.

ـــ فتح الباري في اقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري، وهو كتاب في الحديث مرتب على أبواب العبادات، توجد منه نسخة واحدة.

ـــ الفتح الرباني فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وفقه الإمام الحطاب والشيخ ابن أبي زيد القيرواني، مطبوع.

ـــ بغية ذوي البصائر والألباب في الدرر المنتخبة من تأليف الإمام الحطاب، وهو كتاب في العبادات، غير مطبوع.

ـــ طبق الأرطاب فيما اقتطفناه من مسانيد الأئمة وكتب مشاهير المالكية وفقه الإمام الحطاب، كتاب في الفقه، مخطوط.

ـــ الجواهر واللآلي في التنبيه على ما اشتمل عليه الإحياء للغزالي.

ـــ ترويح القلوب: وهو ديوان في الشعر، مطبوع.

ـــ بغية الطلاب المعينة قارئها على عبادة العزيز الوهاب: وهو شرح لعقيدة ابن أبي زيد القيرواني، مخطوط.

هـــ ـــ وفاتــه

توفي رحمه يوم الأحد الرابع والعشرين من رجب سنة أربعة ومائتين وألف برباط الفتح ودفن بها[6].

الفصل الثاني: المختصرات الفقهية وموقف السلطان منها.

أـــ تعريف المختصرات الفقهية وبعض مرادفاتها.

تعريف المختصرات قال أبو حامد الاسفرايني: " حقيقة الاختصار ضم بعض الشيء إلى بعض ومعناه عند الفقهاء رد الكثير إلى القليل، وفي القليل معنى الكثير وقيل: هو إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى".[7]

أما التلخيص فيقال لخص الشيء أخذ خلاصته والقول قربه واختصره والشيء بينه وشرحه ويقال لخص لي خبرك بينه شيئا بعد شيء فهو ملخص[8].

أما التهذيب فيقال هذب الكلام أي لخصه مما يشينه عند البلغاء، ويقال هذب الكلام أي لخصه وحذف ما فيه من إضافات مقحمة أو غير لازمة[9].

ب ـــ أسباب ظهور المختصرات الفقهية:

لما ألف المتقدمون الدواوين الكبرى أمثال المدونة[10] والموازية[11] والواضحة[12] وأمثالها، عسر على المتأخرين حفظها لبرودة وقعت في الهمم، فقام أهل القرن الرابع بأختصارها، فأول من اختصر المدونة فضل بن سلمة الجهني الأندلسي المتوفى سنة 319هــــ ، ثم في قريب من زمنه الإمام محمد بن عبد الله الطليطلي المتوفى سنة 341 هـــ له أيضا مختصر للمدونةـــ ثم محمد بن عبد الملك الخولاني المعروف بالنحوي البلنسي الأصل المتوفى سنة 364 له مختصر مشهور على المدونة، ثن بعده ابن أبي زمنين الذي اختصر المدونة في الأندلس كما اختصرها ابن أبي زيد في القيروان. واختصرها أيضا أبو القاسم اللبيدي، لكن الذي وقع تداوله بين الاعلام من مختصرات المدونة هو مختصر ابن أبي زيد القيرواني، ثم جاء البرادعي وألف التهذيب اختصر مختصر بن أبي زيد، وأتقن ترتيبها واشتهر كثيرا حتى صار لفظ المدونة يطلق عليه، ثم جاء أبو عمر بن الحاجب واختصر تهذيب البراذعي في أواسط القرن السابع، ثم جاء خليل في أواسط القرن الثامن واختصره. وهنا بلغ الاختصار غايته لأن مختصر خليل هو مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرات[13].

وفكرة الاختصار هنا غايتها مقصدين أساسين الأول تقليل الألفاظ تيسيرا على الحفظ، والثاني جمع ما في كتب المذهب من الفروع.

ج ـــ موقف المولى محمد بن عبد الله من المختصرات الفقهية.

كان السلطان محمد بن عبد الله يرى اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع على من اشتغل بشيء من ذلك حتى كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل. وكان يحض على قراءة كتاب الرسالة لابن أبي زيد والتهذيب للبرادعي وأمثالهما.

والذي دفع المولى محمد إلى هذا القول كون المختصرات الفقهية تقلل من شأن الأمهات والمصادر وتكون واسطة بين طالب العلم وبين معين العلم ومصدره، مما يؤدي إلى نضوب العلم، ونقصان ملكة أهله، وعزوف الناس على كتب الأقدمين المبسوطة المعاني الواضحة الأدلة وإكبابهم على المختصرات المغلقة والصعبة الفهم.

وقد يكون المولى محمد بن عبد الله تأثر بيعقوب المنصور إذ رأينا في ترجمته شدة تعلقه بآثار السلطان يعقوب المنصور وكيف كان يتتبع أوقاته ومنازله في طلب العلم، فقد قال في أحد زياراته لمنازل المنصور:" ...هذه منازل المنصور رحمه الله، وهو أستاذنا في مثل هذه الأمور"[14]

فقد كان يعقوب المنصور يرفض فروع الفقه. قال الناصري: "أمر يعقوب المنصور برفض فروع الفقه، وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية، لا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين، بل تكون أحكامهم كما يؤدي إليه اجتهادهم، من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس".[15]

ولعل هذا الرفض سببه أن الاشتغال بكتب الفروع الفقهية والمختصرات مدعاة إلى الجمود والتقليد وترك الاجتهاد والاستنباط، مما يعطل سير عجلة الفقه وضياع الملكة الاجتهادية لدى الفقيه قال الحجوي:" ... وقد ختم المختصر بعض أشياخنا تدريسا في نحو أربعين سنة، ومع هذا فإنما يحرر الفروع، ويسردها مسلمة، وأما الاطلاع من كتاب وسنة وإجماع وقياس، وعلة الحكم التي لأجلها شرع، وفهم أسرار الفقه، وما هناك من أفكار السلف، وكيفية استنباطهم ومداركهم، فكل ذلك فاتنا بفوات كتب الأقدمين .... وقد كان تعليمه يعين على الملكة الصحيحة في الفقه، والفقيه الذي يستحق لقب فقيه هو العارف بذلك، أما الذي يسرد ألاف من مسائله غير عارف بأصلها فإنما حاك ونقال" هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الاشتغال بها ـــــــ أي المختصرات ـــــــ مدعاة إلى الإغراق وضياع العمر والجهد في فك الرموز وحل المقفل وبيان المجمل. قال محمد بن الحسن الحجوي:"... لما أغرقوا في الاختصار، صار لفظ المتن مغلقا لا يفهم إلا بواسطة الشراح، أو شروح الحواشي، ففات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار وهو جمع الأسفار في سفر واحد، وتقريب المسافة وتخفيف المشاق، وتكثير العلم، وتقليل الزمن، بل انعكس الأمر، إذ كثرت المشاق في فتح الأغلاق، وضاع الزمن من غير ثمن".[16]

وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي، والشيخ النظار أبي إسحاق الشاطبي، والعلامة أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون وغيرهم، أن سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس على تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة[17].

قال بن خلدون في المقدمة:" ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق في العلوم... يدونون[18] منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. فصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم، وربما عمدوا إلى كتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعل ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق وأمثالهم. وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل.... فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات .... ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة لكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول ملكة تامة".

ولعل هذا الذي دفع المولى محمد بن عبد الله إلى النهي عن المختصرات الفقهية محاولة منه إلى شحد الهمم وربطها بالأصول والأمهات حتى يتنافس طلاب العلم في تحصيلها والنهل من معينها الصافي فتحصل لهم بذلك الملكة فيعمدون إلى الاجتهاد والاستنباط من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ويحذون حذو الرعيل الأول من الأئمة المجتهدين.

قال محمد بن الحسن الحجوي في شأن دواوين المالكية العظام للفتاوى والأحكام:" .... وقد أشار مؤلفه في أوله إلى أنه ألفه للفتوى لا للدرس حيق قال ـــ مختصرا مبينا لما به الفتوى ـــ فلا لايستغنى عنه ولا يترك، بل يدرس ويمرن عليه المنتهون ليستعينوا به في الفتوى والقضاء للحاجة الداعية".[19]

خاتمـــــــــة

لقد سعى السلطان محمد بن عبد الله وبدل قصارى جهده للرقي بالجانب العلمي والفكري وبث روح التجديد والاجتهاد فيه، وما موقفه من المختصرات الفقهية إلى دليلا واضحا على ذلك، حيث حاول أن يغرس في نفوس العلماء وطلبة العلم على حد السواء الجد و الاجتهاد والسير على منوال السلف الصالح في الاستنباط من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وعدم الانكباب على المختصرات الجاهزة التي تضيع العمر والجهد في فك رموزها، وتحبس طالب العلم في خندق التقليد، وتقتل فيه الملكة التي تجعله قادرا على وضع القواعد واستنباط الأحكام على منوال الرعيل الأول من الأئمة المجتهدين.

الهوامش:

[1] الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة: عبد الرحمان زيدان الصفحة 55، المطبعة الاقتصادية بالرباط سنة 1937

[2] نفسه.

[3] الاسقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصر الجزء 8 الصفحة 66ـــ 67، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب طبعة 1956.

[4] اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس60 لعبد الرحمان بن زيدان الصفحة 211ـــ 213 الجزء 3 الطبعة الثانية سنة 1990 الدرر الفاخرة: الصفحة 60 62.

[5] المصدر السابق

[6] الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية: لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الجزء الثاني الصفحة 32 تحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف المغربية طبعة 205

[7] دار الكتب العلمية بيروت لبنان هذيب الأسماء واللغات: لابي زكريا محيي الدين بن شرف النووي الجزء 1 من القس م 2 الصفحة 90ـــ 91

[8] معجم الوسيط: الجزء 2 الصفحة 820 لمجموعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية للنشر طبعة 2004

[9] نفسه الجزء2 الصفحة 979.

[10] للإمام مالك بن أنس جمعها سحنون من تلامذة مالك.

[11] لمحمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المتوفى سنة 269 هـــ

[12] لأبي مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي القرطبي المالكي توفي سنة 238 هـــ.

[13] الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: الحجوي الثعالبي الصفحة 357 الجزء 4.

[14] الإستقصا للناصري الجزء 8 الصفحة 67.

[15] الاستقصا: للناصري الجزء الصفحة 178 طبعة دار الكتاب.

[16] الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: محمد بن الحسن الحجوي: الصفحة 459 الجزء 4 دار الكتب العلمية الطبعة 1971 بيروت لبنان

[17] الاستقصا للناصري الصفحة 67 الجزء 8

[18] مقدمة بن خلدون: عبد الرحمان بن خلدون الصفحة 226ـــ 227 تحقيق أبو عبد الرحمان عادل بن سعد دار نشر سومكرام.

[19] الفكر السامي: الحجوي الثعالبي الصفحة 461 الجزء 4.